

4. نظرية التلقي

ظهرت نظرية التلقي في ألمانيا بجامعة كونستانس أواخر الستينيات من القرن 20 على يد كل من هانز روبرت يابوس و فولفغانغ ايزر.

شكلت هذه النظرية اتجاها نقديا مؤثرا يقوم على سلطة القارئ واستجابته للنص الإبداعي وتفاعله معه. حيث كانت الاتجاهات السابقة في مجال النقد الأدبي تهمل القارئ وتركز على المؤلف (الاتجاه الواقعي والنفسي) وهو ما يعرف بالمناهج الخارجية. بعدها ظهرت المناهج الداخلية التي اهتمت بالنص وطرق إدراك المعنى المتضمن فيه (التفكيكية والبنوية). ليأتي بعدها منهد التلقي الذي ركز على القارئ اثناء تفاعله مع النص الادبي قصد تأويله وخلق صورة معناه المتخيلة. وبذلك تكون نظرية التلقي قد حولت الاهتمام من ثنائية (المؤلف _ النص) الى ثنائية (النص _ القارئ).

تعريف التلقي: تنظر نظرية التلقي الى التلقي باعتباره عملية مقابلة للإبداع، تجعل المتلقي مبدع اخر للنص الادبي، ومن هنا تتطلب نظرية التلقي وجود قارئ متميز ذو ثقافة عميقة وخبرة طويلة تتيح له سبر اغوار النص الادبي والوقوف على اسراره وجماليته.

الأصول المعرفية لنظرية التلقي:

تأثرت نظرية التلقي بفلسفتين عرفتا خاصة في ألمانيا هما الفلسفة الظاهرية (الفيينومينولوجيا) والفلسفة التأويلية (الهيرومينوطيقا)

1. الظاهرية (الفيينومينولوجيا):

وهي فلسفة تدعو الى دراسة الظاهرة كما تتجلى في الواقع وترك الاحكام المسبقة. من روادها هوسرل الذي يتجه الى ان إدراك معنى الظاهرة قائم على الفهم الفردي الخالص. أما انغاردين فيرى ان المعنى الموضوعي (الخالي من الاحكام المسبقة) ينشأ بعد ان تشكل الظاهرة معنى في شعور المتلقي. أي الانتقال من عالم المحسوسات الخارجية الى عالم الشعور الداخلي.

أي ان الفهم يتحقق حسب الفلسفة الظاهرية عبر:

* التعامل مع الظاهرة بشكل واقعي.

* الفهم ينبع من ذات الفرد (بناء المعنى ذاتي).

*المعنى يتشكل من ذلك الشعور الداخلي الذي تولده الظاهرة في المتلقي.

2. التأويلية (الهيرومينوطيقا):

من اهم روادها هانس جورج غادمير الذي يرتبط أصل التأويل عنده بالاهتمام باكتشاف المعنى الصحيح للنصوص (المعنى الأصلي). ويرى أن القارئ قوة فاعلة في عملية الفهم والتأويل.

تتجه التأويلية الى ان استنتاج المعنى يتم عبر عملية الفهم والانتقال من المعنى الى الدلالة ثم تأويل النصوص وذلك بتفسيرها جماليا وفنيا، وهذا التأويل التفسيري يختلف من سياق تاريخي الى اخر.

تأثرا بهذه الفلسفات تتجه نظرية التلقي الى ان العمل الادبي لا تكتمل حياته وحركته الإبداعية الا عن طريق القراءة واعادة الإنتاج من جديد.

وترى العمل الادبي باعتباره ذلك الاتصال التفاعلي بين النص والقارئ (الذات والموضوع).

كما ترى ان نص المؤلف لا يحقق مقصديته ووظيفته الجمالية الا من خلال فعل التحقق القرائي وتجسيده عبر عمليات ملئ الفراغات وتحديد ما هو غير محدد، واستخلاص المعاني عن طريق الفهم والتأويل والتطبيق.

*مبادئ هانز روبرت يابوس:

تأثر يابوس كثيرا بتأويلية غادمير وقدم عددا من المفاهيم ضمن نظرية التلقي أهمها ما يلي:

***أفق التوقعات**: هو مجموع التوقعات الأدبية والثقافية التي يتسلح بها القارئ في تناوله للنص الادبي. معناه ان المتلقي قبل ان يلتقي العمل يجب ان تكون له مجموعة من التوقعات حول العمل، ومع بداية تلقيه للعمل يبدأ في انشاء حوار بين توقعاته المسبقة للعمل وبين ما يقدمه العمل بالفعل.

*فالقارئ اثناء قراءته للنص او تلقيه للعمل الادبي يحمل مجموعة من التوقعات هي بمثابة ما ينتظره من النص.

*النص الجديد يستدعي الى ذهن القارئ افق انتظار وقواعد يعرفها بفضل النصوص السابقة.

*يحكم المتلقي على العمل من خلال قياس درجة انتمائه الى النماذج السابقة له او انحرافه عنها مما يشكل معيارا للحكم على قيمة العمل الجديد في إطار جنسه الادبي الذي ينتمي اليه أو في إطار تأصيله لجنس جديد او اتجاه مختلف يؤسس لقيم جديدة في الادب والثقافة.



*إذا توافق افق النص مع افق توقعات القارئ سيولد شعورا بالرضا والارتياح لدى المتلقي وفي الوقت ذاته يعني ان النص لم يأتي بالجديد.

*إذا كان هناك تعارض بين افق النص وافق توقعات القارئ ستحدث صدمة لدى المتلقي ويبدأ في تغيير افق توقعاته حتى ينسجم مع أفق النص، هذه الصدمة تعني ان النص أثر بشيء جديد غير مألوف لدى القارئ.

أفق توقع معين ← كسر لأفق التوقع ← تغيير أفق التوقع

**عوامل تكوين افق التوقعات:

1.التجنيس: يملك المتلقي فكرة مسبقة عن الجنس الادبي الذي ينتمي اليه النص الذي سيتلقاه ويعرف مكوناته وسماته وبالتالي سيتولد لديه توقع لما سي شاهد او سيقراً.

2.التناسق: هو شكل الاعمال المسبقة والمعاصرة وموضوعاتها، ومشاهدة الاعمال المماثلة للعمل الذي سيتلقاه المتلقي، وكل هذا يولد لديه افق توقعات معين.

3.التخييل: معناه معرفة المتلقي ان لغة الادب مغايرة للغة الحياة اليومية، لغة غير مألوفة تعتمد الخيال، وقد استمد ياوس هذه الفكرة من المدرسة الشكلية التي تنادي بأدبية الادب (أي ان الادب يملك لغة خاصة به تختلف عن اللغة اليومية).

**المسافة الجمالية:

افق التوقع يخلق نوعا من التأثير الجمالي بين النص والمتلقي، أي حالة من التفاعل تعطي للمتلقي دورا إيجابيا وتجعل منه عنصرا مشاركا في عملية صنع الاحداث بشكل او باخر.

فالمسافة الجمالية هي الفرق بين التوقعات وبين الشكل المحدد للعمل الجديد. أي المسافة التي تفصل بين افق النص وافق توقع القارئ. وكلما اتسعت المسافة الجمالية تحققت القيمة الجمالية للنص الادبي (أي كلما ابتعد النص الادبي عن المؤلف كلما زادت قيمته الأدبية).

مبادئ فولفغانغ ايزر:

طرح ايزر بدوره مفهوميين مهمين هما ملء الفجوات والقارئ الضمني.

**ملء الفجوات:

يتضمن النص فراغات أي مناطق غير محددة وغامضة يعمل القارئ على ملئها لتتم عملية التفاعل بينه وبين النص، ويعتمد في ذلك على ثقافته، محيلته، تجاربه، معطيات النص، والربط بين اجراء النص... الخ.

فقد انتقد ايزر الشكل التقليدي للتأويل القائم على البحث عن المعنى الوحيد للنص بإرشاد القارئ نحوه، ويرى انه يتجاهل طبيعة النص بوصفه تجربة يعيشها القارئ. ويرى ايزر انه بتوضيح عمليات انتاج المعنى نستطيع ان نتوصل الى فهم كيف يمكن للمعنى ان يتخذ عدة اشكال مختلفة، كما يرى ان التعرف على المعنى لا يكون الا في صورة متخيلة وهو عبارة عن اثر يعاش، وفي هذه المسألة يتجه الى ان النصوص التخيلية تكون موضوعات خاصة بها وانها لا تنقل شيئاً له وجود سابق، ولهذا السبب فإن هذه النصوص لا يمكن ان يكون لها نفس التحديد الكامل الذي يكون للأشياء الحقيقية، وان عناصر اللاتحديد في النصوص هي التي تخلق التواصل ما بين النص والقارئ، بمعنى انها تحت هذا الأخير على المشاركة في الإنتاج وفهم قصد العمل معا من هلال ملء الفراغات انطلاقاً من تجربته الخيالية.

**القارئ الضمني:

هو القارئ الذي يضعه الكاتب نصب عينيه اثناء عملية الكتابة فيضع له مجموعة من التوجيهات الداخلية تجعل تلقي القارئ لهذا النص ممكناً.

هو قارئ متخيل يتصوره المؤلف اثناء تأليفه لعمله، ويسمى أيضاً بالقارئ المضمّر أو المخفي.

وقد طرح ايزر هذا المفهوم كرد على جملة من المصطلحات التي تناولها سابقوه مثل:

القارئ المثالي: الذي ينبغي ان يشاطر المؤلف نفس المقاصد ويكون قادرا على تحقيق المعنى الكامن في النص بتمامه، ويعتبر ايزر ان هذا القارئ عبارة عن كائن تخيلي لا وجود له في الواقع. اتجاه النص.

القارئ الخبير: الذي يكون ملما إماما كاملا باللغة التي كتب بها النص إضافة الى الكفاءة الأدبية، ويكون هذا القارئ قادرا على تقييم ردود افعاله

القارئ المقصود: هو القارئ الذي يقصده المؤلف اثناء بناء نصه.

القارئ الحقيقي: هو الذي يتلقى العمل الادبي في حقبة تاريخية معينة ويصدر احكاما تعكس مواقفه ومعاييره وذوق مجتمعه.

ويرى ايزو ان محاولة فهم التأثيرات التي تسببها الاعمال الأدبية والتجاوبات التي تثيرها، يتوجب التسليم بحضور القارئ دون تحديد مسبق لطبيعة أو وضعية هذا القارئ والذي يمكن تسميته بالقارئ الضمني.

ويذهب الى ان النصوص الأدبية تأخذ حقيقتها من كونها تُقرأ. وهذا بدوره يعني ان النصوص يجب ان تحتوي مسبقا على بعض شروط التأويل والاحالة التي تسمح بتشكيل المعنى في ذهن المتلقي. اذن فمفهوم القارئ الضمني هو بنية نصية تتوقع حضور متلق دون ان تحدده بالضرورة. او يمكن القول بعبارة أخرى انه القارئ الذي يخلقه النص لنفسه.